تفسير سورةُ النور
من آية (39) إلى آية (46)
اللقاء التاسع

المعنى الإجمالي من آية (35) إلى آية (38):

اللهُ نورُ السَّمواتِ والأرضِ، وهادي مَن فيهما، مَثَلُ نورِ الله في قلبِ المؤمنِ ككَوَّةٍ في حائطٍ غيرِ نافذةٍ، فيها مِصباحٌ، المِصباحُ في زُجاجةٍ مُتوهِّجةٍ كأنَّها كوكبٌ مُضيءٌ كالدُّرِّ، يوقَدُ المصباحُ مِن زيتِ شَجَرةِ زيتونٍ مُبارَكةٍ، لا شرقيَّةٍ ولا غربيَّةٍ، فلا يستُرُها عن الشَّمسِ شَيءٌ في الصَّباحِ أو في المساءِ، يكادُ زيتُها -لصفائِه- يضيءُ ولو لم تمسَسْه نارٌ، نورٌ على نورٍ؛ نورُ النَّارِ مع نورِ الزَّيتِ والزجاجة، وانعكاسه مِن الكوَّةِ، وهكذا قلبُ المؤمنِ إذا أشرقَ فيه نورُ الهدايةِ، واللهُ يَهدي لنورِه مَن يشاءُ مِن عبادِه، ويضرِبُ اللهُ الأمثالَ للنَّاسِ، واللهُ بكُلِّ شيءٍ عَليمٌ، لا يخفى عليه شَيءٌ.

يُبيِّنُ الله سبحانَه أهمَّ أماكنِ هذا النورِ، ومَن ينتفعُ به، فيقولُ تعالى: في مَساجِدَ أَذِنَ سبحانَه أن تُبنى وتُشادَ، وتُعظَّمَ وتُطهَّرَ، ويُذكَرَ فيها اسمُ الله، يُسبِّحُ للهِ فيها بإخلاصٍ في أوَّلِ النَّهارِ وفي آخِرِه- رجالٌ لا تُلهيهم تِجارةٌ ولا بَيعٌ عن ذِكرِ رَبِّهم، وإقامةِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ لِمُستحقِّيها، يخافونَ يومَ القيامةِ الذي تَضْطَرِبُ مِن شِدَّةِ هَولِه وفَزَعِه قلوبُ النَّاسِ وأبصارُهم؛ ليُكافِئَهم اللهُ على أعمالِهم في الدُّنيا بأحسَنِ ما عَمِلوا، ويَزيدَهم مِن فَضلِه جزاءً عليها، واللهُ يرزُقُ مَن يشاءُ بغيرِ حِسابٍ.

(أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيطَانِ الرَّجِيمِ)

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ ﴿39﴾

هذان مثلان، ضربهما الله لأعمال الكفار في بطلانها وذهابها سدى وتحسر عامليها منها.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال ابن عطية: لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى فيما تقَدَّمَ حالةَ الإيمانِ والمؤمِنينَ، وتَنويرَه قُلوبَهم؛ عَقَّب ذلك بذِكرِ الكَفَرةِ وأعمالِهم.

قال الرازي: وأيضًا لَمَّا بيَّن اللهُ سُبحانَه حالَ المؤمِنِ، وأنَّه في الدُّنيا يكونُ في النُّورِ، وبسَبَبِه يكونُ متمَسِّكًا بالعمَلِ الصَّالِحِ، ثمَّ بيَّن أنَّه في الآخرةِ يكونُ فائزًا بالنَّعيمِ المقيمِ والثَّوابِ العظيمِ- أتبعَ ذلك بأنْ بيَّن أنَّ الكافِرَ يكونُ في الآخرةِ في أشَدِّ الخُسرانِ، وفي الدُّنيا في أعظَمِ الظُّلُماتِ، وضرَبَ لكلِّ واحدٍ منهما مثَلًا، فقال تعالى:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ) أي: ومَثَلُ أعمالِ الذين كفَروا مَثَلُ سَرابٍ في أرضٍ مُنبَسِطةٍ خاليةٍ مِن البناءِ والشَّجَرِ والنَّباتِ وغيرِها مِن المعالِمِ. موسوعة التفسير

قال ابن كثير: مَرَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بِدَيْرِ رَاهِبٍ، قَالَ: فَنَادَاهُ: يَا رَاهِبُ فَأَشْرَفَ. قَالَ: فَجَعَلَ عُمَرُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ وَيَبْكِي. فَقِيلَ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَا يُبْكِيكَ مِنْ هَذَا؟ قَالَ: ذَكَرْتُ قَوْلَ اللَّهِ، عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ: ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً﴾ فَذَاكَ الَّذِي أَبْكَانِي.

قال ابنُ القيم: (ذكَرَ سُبحانَه للكافِرينَ مَثَلين: مَثَلًا بالسَّرابِ، ومَثَلًا بالظُّلماتِ المتراكِمةِ؛ وذلك لأنَّ المعرِضينَ عن الهُدى والحَقِّ نوعان؛ أحَدُهما: مَن يَظُنُّ أنَّه على شَيءٍ، فيتبيَّنُ له عندَ انكِشافِ الحقائِقِ خِلافُ ما كان يظُنُّه، وهذه حالُ أهلِ الجَهلِ وأهلِ البِدَعِ والأهواءِ الذين يظنُّونَ أنَّهم على هُدًى وعِلمٍ، فإذا انكشَفَت الحقائِقُ تبيَّنَ لهم أنَّهم لم يكونوا على شَيءٍ، وأنَّ عقائِدَهم وأعمالَهم التي ترتَّبَت عليها كانت كسَرابٍ بقِيعةٍ يُرى في عينِ النَّاظِرِ ماءً، ولا حقيقةَ له! وهكذا الأعمالُ التي لغيرِ اللهِ وعلى غيرِ أمْرِه، يَحسَبُها العامِلُ نافِعةً له، وليست كذلك!... وتأمَّلْ جَعْلَ اللهِ سُبحانَه السَّرابَ بالبقِيعةِ -وهي الأرضُ القَفرُ الخاليةُ مِنَ البناءِ والشَّجَرِ والنَّباتِ والمعالِمِ- فمَحَلُّ السَّرابِ أرضٌ قَفرٌ لا شَيءَ بها، والسَّرابُ لا حقيقةَ له، وذلك مُطابِقٌ لأعمالِهم وقُلوبِهم التي أقفَرَت مِنَ الإيمانِ والهُدى!... فهذا مَثَلُ الضَّالِّ الذي يَحسَبُ أنَّه على هُدًى).

وهذا مثال لقلوبهم، لا خير فيها ولا بر فتزكو فيها الأعمال وذلك للسبب المانع، وهو الكفر.

(يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا) أي: يظُنُّ العَطشانُ ذلك السَّرابَ ماءً، حتى إذا جاء إلى موضِعِه يلتَمِسُ الماءَ، لم يجِدِ السَّرابَ شَيئًا مِمَّا كان يظُنُّه؛ فيَهلِكُ، وكذلك الكافِرونَ: يظُنُّونَ اعتقاداتِهم وأعمالَهم تنفَعُهم، فإذا جاؤوا يومَ القيامةِ وجَدوها غيرَ مَقبولةٍ عندَ اللهِ؛ فلا ينتَفِعونَ بها. موسوعة التفسير

مثل الله تعالى الكفار الذين يعملون بعض الأعمال التي يرجون نفعها عند الله، فلم يجدوا ثواب ما عملوا عنده في الآخرة، مع شدة طمعهم في ذلك، بعطشان اشتدَّ عطشه يرى السراب من بعيد فيظنه ماء فيطمع فيه، فإذا وصل عنده لم يجده شيئاً.

خص سبحانه الظمآن بالذكر مع أن غير الظمآن يراه لتحقيق التشبيه المبني على الطمع والحاجة في كل من المشبه والمشبه به، فالكافر بحاجة إلى الأعمال الصالحة في الآخرة مثل احتياج الظمآن إلى الماء في الدنيا.

كما قال تعالى: مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ [إبراهيم: 18].

وقال سُبحانَه: وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا [الفرقان: 23].

فندم ندما شديدا، وازداد ما به من الظمأ، بسبب انقطاع رجائه، كذلك أعمال الكفار، بمنزلة السراب، ترى ويظنها الجاهل الذي لا يدري الأمور، أعمالا نافعة، فيغره صورتها، ويخلبه خيالها، ويحسبها

هو أيضا أعمالا نافعة لهواه، وهو أيضا محتاج إليها بل مضطر إليها، كاحتياج الظمآن للماء، حتى إذ قدم على أعماله يوم الجزاء، وجدها ضائعة، ولم يجدها شيئا، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه عن رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ ".... يُدْعَى الْيَهُودُ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابْنَ اللهِ، فَيُقَالُ: كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ، فَمَاذَا تَبْغُونَ؟ قَالُوا: عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا، فَاسْقِنَا، فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلَا تَرِدُونَ؟ فَيُحْشَرُونَ إِلَى النَّارِ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ، ثُمَّ يُدْعَى النَّصَارَى، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ ابْنَ اللهِ، فَيُقَالُ لَهُمْ، كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَاذَا تَبْغُونَ؟ فَيَقُولُونَ: عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا، فَاسْقِنَا، قَالَ: فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلَا تَرِدُونَ؟ فَيُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ" متفق عليه

وقال عزَّ وجلَّ: أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا [فاطر: 8].

❁من عدْلِه – سبحانه وتعالى – أنَّه يجزي الكافر بحسناته في الدنيا: عَن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قال: قال رَسُولُ اللَّهِ – صلَّى اللَّهُ عليْه وسلَّم –: "إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً يُعْطَى بِها في الدُّنْيَا ويُجْزَى بِها في الآخِرَة، وأمَّا الكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِ مَا عَمِلَ بِها لِلَّهِ في الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا أفْضَى إلى الآخِرَةِ، لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بِها". رواه مسلم

(وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ) أي: ووجَدَ الكافِرُ ربَّه عندَه بالمرصادِ، فيُجازيه يومَ القيامةِ على جميعِ أعمالِه التي عَمِلَها في الدُّنيا بما يَستَحِقُّه مِن العذابِ جزاءً وافيًا. موسوعة التفسير

(وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ) أي: واللهُ سريعُ المحاسَبةِ لعِبادِه، لا يخفَى عليه شَيءٌ مِن أعمالِهم، ولا يَشغَلُه حِسابٌ عن حِسابٍ. موسوعة التفسير

قال السعدي: (وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ فلا يَستبطِئِ الجاهلونَ ذلك الوعدَ؛ فإنَّه لا بدَّ مِن إتيانِه).

فيه إثباتُ الحِسابِ، وأنَّ الإنسانَ سوف يُحاسَبُ على عمَلِه؛ إنْ خَيرًا فخَيرٌ، وإنْ شَرًّا فشَرٌّ، فينبَغي للعاقِلِ أن يُحاسِبَ نفْسَه قبْلَ أنْ يُحاسَبَ، كما قال أميرُ المؤمِنينَ عُمرُ بنُ الخَطَّابِ رضي اللهُ عنه: (حاسِبوا أنفُسَكم قبْلَ أن تُحاسَبوا). الدرر السنية

قال ابن عثيمين: فكَوْنُ الإنسانِ يُحاسِبُ نفْسَه لِيُصلِحَ ما عَساهُ فسَدَ، أَوْلى مِن سُكوتِه وإهمالِه وعدَمِ حسابِ نفْسِه؛ لأنَّ الذُّنوبَ تَتراكَمُ عليه ثمَّ يَهلِكُ.

ويجب أن يحذر المؤمن أشد الحذر من الشرك الأصغر الرياء، لأنه يحب العمل، فيعتقد صاحبه أن ينفعه، وهو سراب لا ينفعه، لا يقبل الله إلا ما كان خالصا له وحده، لا تسميع ولا رياء.

إن النبي -ﷺ- قال لأبي بكر -رضي الله عنه-: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَلشِّرْكُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ، أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى شَيْءٍ إِذَا قُلْتَهُ ذَهَبَ عَنْكَ قَلِيلُهُ وَكَثِيرُهُ؟ قَالَ: قُلِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لما لا أعلم" صحيح الأدب المفرد

قال –عز وجل–:(وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ) [الزمر:47]

قال ابن رجب: هذه الآية كانت تشتد على الخائفين العارفين.

جزع محمد بن المنكدر عند موته جزعاً شديداً، فقيل له: ما هذا الجزع؟ قال: أخاف آية من كتاب الله "وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون" فأنا أخشى أن يبدو لي ما لم أكن أحتسب.

أعمال ظن أنها ستنجيه، لكنه لم يخلص النية فيها لله، فكانت عليه، وبدا له ما لم يكن في حسابه.

﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ ﴿40﴾

والمثل الثاني، لبطلان أعمال الكفار.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال البقاعي: لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى بالمثالِ السَّابِقِ أنَّ الكافرينَ لم يَصِلوا إلى شيءٍ غيرِ التَّعَبِ المثمِرِ للعَطَبِ، وكان هذا لا يفعَلُه بنَفْسِه عاقِلٌ- ضرَب مثالًا آخَرَ بيَّن الحامِلَ لهم على الوقوعِ في ذلك، وهو السَّيرُ بغيرِ دليلٍ، الموقِعُ في خَبطِ العَشواءِ، كالماشي في الظَّلامِ.

(أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ) أي: أو مَثَلُ أعمالِ الكافرينَ في ضَلالِهم وجَهلِهم الذي لا يتبيَّنونَ فيه الهُدى والحَقَّ، مَثَلُ ظُلُماتٍ في بحرٍ عَميقٍ. موسوعة التفسير

وقال ابنُ القيِّم: (النوع الثَّاني: أصحابُ مثَلِ الظُّلُماتِ المتراكِمةِ، وهُمُ الذين عرَفوا الحقَّ والهُدى، وآثَروا عليه ظُلُماتِ الباطِلِ والضَّلالِ، فتراكمَتْ عليهم ظُلْمةُ الطَّبعِ، وظُلمةُ النفوسِ، وظُلمةُ الجهلِ حيث لم يَعمَلوا بعِلمِهم فصاروا جاهِلين، وظُلمةُ اتِّباعِ الغَيِّ والهَوى، فحالُهم كحالِ مَن كان في بحرٍ لُجِّيٍّ لا ساحلَ له، وقد غَشِيَه مَوجٌ، ومِن فَوقِ ذلك الموجِ مَوجٌ، ومِن فَوقِه سَحابٌ مُظْلِمٌ؛ فهو في ظُلمةِ البحرِ، وظُلمةِ الموجِ، وظُلمةِ السَّحابِ، وهذا نَظيرُ ما هو فيه مِنَ الظُّلُماتِ التي لم يُخرِجْهُ اللهُ منها إلى نورِ الإيمانِ... فكذلك الكفَّارُ في هذَينِ المثَلَينِ؛ حَظُّهم مِنَ الماءِ السَّرابُ الذي يَغُرُّ الناظِرَ ولا حقيقةَ له، وحَظُّهمُ الظُّلُماتُ المتراكِمةُ.

(يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ) أي: يَعلو ذلك البَحرَ اللُّجِّيَّ مَوجٌ، ومِن فوقِ الموجِ مَوجٌ آخَرُ يَعلوه، ومِن فَوقِ الموجِ الثَّاني سَحابٌ مُظلِمٌ. موسوعة التفسير

قال الشوكاني: (والبحرُ أخوفُ ما يكونُ إذا توالَتْ أمواجُه، فإذا انْضَمَّ إلى ذلك وجودُ السَّحابِ مِن فوقِه، زادَ الخوفُ شِدَّةً، لأنَّها تَستُرُ النُّجومَ الَّتي يَهْتَدي بها مَن في البحرِ، ثمَّ إذا أمطَرت تلك السحبُ وَهَبَّتِ الرِّيحُ المعتادَةُ في الغالبِ عندَ نُزولِ المطرِ، تكاثَفَتِ الهمومُ، وترادَفَتِ الغمومُ، وبَلَغ الأمرُ إلى الغايةِ الَّتي ليسَ وراءَها غايةٌ).

(ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ) أي: ظُلمةُ البَحرِ، وظُلمةُ الموجِ، وظُلمةُ السَّحابِ؛ هي ظُلُماتٌ مُتراكِمةٌ، بَعضُها فوقَ بعضٍ. موسوعة التفسير

قال ابنُ جرير: (فجعَلَ الظُّلُماتِ مَثَلًا لأعمالِهم، والبَحرَ اللُّجِّيَّ مَثلًا لقَلبِ الكافِرِ، يقولُ: عَمَلُه بنيَّةِ قَلبٍ قد غمَره الجَهلُ، وتغَشَّتْه الضَّلالةُ والحَيرةُ، كما يَغشى هذا البَحرَ اللُّجِّيَّ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ، فكذلك قَلبُ هذا الكافِرِ الذي مَثَلُ عَمَلِه مَثَلُ هذه الظُّلُماتِ؛ يغشاه الجَهلُ باللهِ، بأنَّ اللهَ ختَمَ عليه فلا يَعقِلُ عن اللهِ، وعلى سَمعِه فلا يَسمَعُ مَواعِظَ اللهِ، وجعَلَ على بصَرِه غِشاوةً فلا يُبصِرُ به حُجَجَ اللهِ، فتلك ظُلُماتٌ بَعضُها فوقَ بَعضٍ).

وقال السعدي: (كذلك الكُفَّارُ؛ تراكمت على قلوبِهم الظُّلُماتُ: ظُلمةُ الطبيعة التي لا خيرَ فيها، وفوقَها ظلمةُ الكُفرِ، وفوقَ ذلك ظُلمةُ الجَهلِ، وفوقَ ذلك ظُلمةُ الأعمالِ الصَّادرة عمَّا ذُكر، فبقُوا في الظلمةِ متحيِّرين، وفي غمرتِهم يَعْمَهون، وعن الصراطِ المستقيمِ مُدْبِرين، وفي طرُقِ الغَيِّ والضَّلالِ يتردَّدون؛ وهذا لأنَّ الله تعالى خذَلهم، فلمْ يُعطِهم مِن نورِه).

وقد شبَّهَ أعمالَهم أوَّلًا في فَواتِ نفْعِها وحُضورِ ضرَرِها بسَرابٍ لم يجِدْه مَن خدَعَه مِن بعيدٍ شيئًا، ولم يَكْفِه خَيبةً وكَمَدًا أنْ لم يجِدْ شيئًا كغيرِه مِن السَّرابِ، حتَّى وجَدَ عندَه الزَّبانيةَ -على قولٍ في التفسيرِ- تَعتِلُه إلى النَّارِ، ولا يقتُلُ ظمأَهُ بالماءِ. وشبَّهها ثانيًا في ظُلْمتِها وسَوادِها لكونِها باطلةً، وفي خُلوِّها عن نورِ الحقِّ بظُلُماتٍ مُتراكمةٍ مِن لُجِّ البحرِ والأمواجِ والسَّحابِ. الدرر السنية

(إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا) أي: إذا أخرجَ مَن كان في هذه الظُّلُماتِ يَدَه لِيَنظُرَ إليها، لم يقارِبْ رُؤيتَها؛ مِن شِدَّةِ الظَّلامِ، فلا يراها مُطلقًا. موسوعة التفسير

(وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ) أي: ومَنْ لم يَهدِه اللهُ في الدُّنيا لنورِ القُرآنِ ويُوفِّقْه للإيمانِ، فلا هِدايةَ له مِن أيِّ أحَدٍ كائنًا مَن كان. موسوعة التفسير

فلا صلاة ولا ذكر ولا طاعة، فماذا بقي له من النور والبصيرة المزعومة .... عادل صالح السليم

كما قال تعالى: مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا [الكهف: 17].

وقال سُبحانَه: وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ [غافر: 33].

قال ابن عثيمين: هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّه يجبُ على المرءِ أنْ يلجأَ إلى اللهِ دائمًا، فيسألَه أنْ يُنَوِّرَ قلبَه؛ لأنَّ قوله تعالى: وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ هذا منطوقُ الآيةِ، ومفهومُ الآيةِ: مَن جَعَلَ اللهُ له نورًا فلا أحدَ يَحْجُبُ عنه نورَ اللهِ عزَّ وجلَّ.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿41﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال ابن حيان: لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى مَثَلَ المؤمنِ والكافِرِ، وأنَّ الإيمانَ والضَّلالَ أمْرُهما راجِعٌ إليه؛ أعقَبَ بذِكرِ الدَّلائِلِ على قُدرتِه وتوحيدِه

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) أي: ألم تَرَ أنَّ اللهَ يُسَبِّحُ له وينزِّهُه عن النَّقائِصِ كُلُّ مَن في السَّمواتِ وكُلُّ مَن في الأرضِ؛ مِن الملائكةِ والنَّاسِ والجِنِّ، والحيواناتِ والنَّباتاتِ والجَماداتِ. موسوعة التفسير

قال السعدي: نبه تعالى عباده على عظمته، وكمال سلطانه، وافتقار جميع المخلوقات له في ربوبيتها، وعبادتها.

قال ابنُ عثيمين: (هل هذه الرُّؤيةُ بَصَريَّةٌ أو عِلميَّةٌ؟ ... الأَولى: أن تكونَ عِلميَّةً، يعني: ألَمْ تَعلَمْ، سواءٌ كان عِلمُك عن طريقِ المشاهَدةِ بالبَصَرِ، أو عن طريقِ السَّمعِ بالأُذُنِ، أو عن طريقِ الاستِنتاجِ بالعَقلِ والتَّفكيرِ، هذه الثَّلاثةُ هي طُرُقُ العِلمِ، كما قال الله عزَّ وجلَّ: إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا [الإسراء: 36]).

قال ابنُ جُزَي: (والتَّسبيحُ: التَّنزيهُ والتَّعظيمُ، وهو مِنَ العُقلاءِ بالنُّطقِ، وأمَّا تَسبيحُ الطَّيرِ وغيرِها مِمَّا لا يَعقِلُ، فقال الجُمهورُ: إنَّه حقيقيٌّ، ولا يَبعُدُ أن يُلهِمَها اللهُ التَّسبيحَ كما يُلهِمُها الأُمورَ الدَّقيقةَ التي لا يَهتدي إليها العُقَلاءُ. وقيل: تَسبيحُه: ظُهورُ الحِكمةِ فيه).

عن أبي ذر -رضي الله عنه- عن النبي -ﷺ-أنه قال: "إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، أَطَّتْ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ". السلسلة الصحيحة

انظر حولك في الكتاب المنظور، آيات كونية، تقل لك في كل لحظة، لا تكن الجمادات والدواب ذاكرة شاكرة أكثر منك، أدت حق الله بالخضوع والذل، وانت لا زلت تتكبر، ولا تؤدي حق المنعم.

كما -عز وجل-: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ۗ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۩) [الحج:18]

الإسراء44

الجمادات انقادت لمولاها طوعاً وهي لا تعقل، (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) [فصلت:11]

وابن آدم سئل تأتي طوعا أو كرها، قال كرهاً الا من عصمه الله وهو يعقل، (إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) [الأحزاب:72]

اصطفا الله ابن آدم على مخلوقاته بالخلق والخلق والعقل، فأبى واستكبر، ولا يعلم المسكين أن راحته وسعادته، بسمعنا وأطعنا، وان الله لو أعطاه الدنيا وما فيها، لا تعدل لحظة في القرب من الله.

لذلك الجمادات، أبت أن تحمل الامانة لعلمها أن الله أعظم من أن يعصى، فأتت طائعة، خاضعة، مسبحة، كما ثبت في صحيح البخاري عن ابن مسعود رضي الله "ولقد كُنَّا نسمعُ تسبيح الطعام وهو يؤكل".

قالَ أحدُ السلفِ: " أما يستحي أحدكم أن تكونَ دابتُه الذي يركبُ أو ثوبُه الذي يلبسُ أكثرُ ذِكراً منه.

كما قال -عز وجل-: تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ [الإسراء: 44].

(وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ) أي: والطَّيرُ مُصطَفَّاتِ الأجنحةِ في الهواءِ، تُسَبِّحُ لله أيضًا في حالِ طَيَرانِها. موسوعة التفسير

قال ابن كثير: في حال طيرانها تسبح ربها وتعبده بتسبيح ألهمها وأرشدها إليه، وهو يعلم ما هي فاعلة.

الذي أمسكها في السماء لا تقع، قادر أن يمسك روحك التي بين جنبيك، ويسلبها لتصعد لباريها، فهو على كل شيء قدير.

كما قال تعالى: أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ [الملك: 19].

وجاء في "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز قال ابن عطية في اية (وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَاعِلِينَ) [الأنبياء: 79]، هو يسبح وكانت الجبال تجاوبه بالتسبيح وكذلك الطير، وقيل كان داود إذا فتر يسمعه الله تسبيح الجبال والطير لينشط في التسبيح ويشتاق اليه.

المخلوقات كلها استنارت بنور الله، وخضعت له وانكسرت وانذلت لهيبته وجلاله، يجب أن نشاركهم حتى لا نكون من الذين حق عليهم العذاب، لأنهم رفضوا نور الله وأبوا إلا أن يكونوا في الظلمات.

(كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ) أي: كلُّ مخلوقٍ قد عَلِمَ صلاتَه وتَسبيحَه لله. موسوعة التفسير

قال ابن كثير: أي كل قد أرشده الله إلى طريقته ومسلكه في عبادة الله عز وجل.

قال الماوردي: (كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ... فيه قولانِ: أحدُهما: أنَّ كلَّ واحدٍ منهم قد علِم صلاتَه وتسبيحَه. الثاني: أنَّ الله قد علِم صلاتَه وتسبيحَه).

(وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ) أي: واللهُ ذو عِلمٍ بما يفعَلُ كُلُّ مُصَلٍّ ومُسَبِّحٍ منهم، لا يخفَى عليه شَيءٌ مِن أعمالِهم، وهو مُجازيهم على ذلك. موسوعة التفسير

يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ، يعلم من أطلق بصره في مخلوقات الله، ليصل الى معرفة ربه وعظمته وقدرته وعزته، ويعلم من أطلق بصره في المحرمات وهو يسترق ولا يعلم أقرب الناس اليه هذا، والله يخبره أنه كفى به عليما.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ ﴿42﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال البقاعي: لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى عمَّا في الكونَينِ بما يستلزِمُ المِلكَ على أنهَى وجوهِ التَّمامِ المستلزِمِ للقُدرةِ على البَعثِ؛ أخبَرَ عنهما بالتَّصريحِ به.

قال السعدي: وأيضًا لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى عبوديَّةَ المخلوقاتِ، وافتقارَهم إليه مِن جِهةِ العبادةِ والتوحيدِ؛ بيَّنَ افتِقارَهم مِن جِهةِ المِلكِ والتَّربيةِ والتَّدبيرِ، فقال

(وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) أي: ولله سُلطانُ السَّمَواتِ والأرضِ ومُلكُهما وتدبيرُهما، فلا تنبغي الرَّهبةُ والرَّغبةُ والعبادةُ إلَّا له وحْدَه. موسوعة التفسير

قال ابن كثير: أن له ملك السماوات والأرض، فهو الحاكم المتصرف الذي لا معقب لحكمه، وهو الإله المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له.

❶ في حكمه الشرعي: كما في آيات الحدود، والاستئذان، والامر بغض البصر، والحجاب، والاستعفاف وغيرها...

❷ وفي حكمه القدري: (وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ) في هذه الدار.

❸ وفي حكمه الجزائي، بدار القرار، كما قال -سبحانه-: (يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ)، وقال: (وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ).

(وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ) أي: وإلى اللهِ وحْدَه مَرجِعُ عِبادِه، فيَبعَثُهم بعدَ مَوتِهم، ويُجازيهم على أعمالِهم؛ فلْيُحسِنوا عبادَتَه، ويجتَهِدوا في طاعتِه. موسوعة التفسير

وقال ابن عثيمين: (ويحتَمِلُ أنَّ قولَه: الْمَصِيرُ ليس المرادُ مَصيرَ النَّاسِ في الآخرةِ فقط، بل مصيرُ الأمورِ كُلِّها، يعني: المرجِعُ إلى اللهِ في كُلِّ شَيءٍ، كلُّ شَيءٍ صائِرٌ إلى الله؛ فهو سبحانَه وتعالى يدبِّرُ ويَفعَلُ ما شاء).

وقال ابن عثيمين: تنبيهٌ على أنَّه سُبحانَه وتعالى مالِكٌ للأوَّلِ والآخِرِ، ف وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ابتداءٌ، وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ انتهاءٌ؛ ففيه -واللهُ أعلمُ- إشارةٌ إلى أنَّه إذا كان المِلكُ للهِ والمرجِعُ إليه، فإنَّه لا يَحِلُّ لنا أنْ نتصرَّفَ إلَّا حسَبَ ما شُرِعَ لنا ما دُمْنا مِلكًا للهِ عزَّ وجلَّ، ومصيرُنا إلى اللهِ، وما دُمْنا نَعلمُ أنَّ مصيرَنا إليه فلا بُدَّ أنْ نستعدَّ لهذا المصيرِ؛ لأنَّه سوف يُحاسبُنا.

وبعبارة آخرى كل ما تريده في السماوات والارض، هو ملك لله، فأطلبه من مولاه، وتوجه اليه، لتناله برضاه، ومن عصاه فلله ملك السماوات والأرض، وهو عليك قدير.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ ﴿43﴾

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا) أي: ألم تَرَ أنَّ اللهَ يَسوقُ بقُدرتِه قِطَعَ السَّحابِ المتفَرِّقةَ، إلى حيثُ يريدُ. موسوعة التفسير

❁والسحاب جمع سحابة، وهي الغيم الذي ينزل منه المطر.

قال ابنُ عثيمين: (فالرُّؤيةُ في قَولِه: أَلَمْ تَرَ بمعنى العِلمِ، وتفسيرُنا لها بالعِلمِ أعَمُّ مِن تفسيرِها بالرُّؤيةِ البَصَريَّةِ؛ لأجْلِ أن يَشمَلَ رُؤيةَ الإنسانِ ببَصَرِه -أي: عن طريقِ المشاهَدةِ؛ لأنَّها تؤدِّي إلى العِلمِ-، ورُؤيةَ الإنسانِ بسَمْعِه بما يُخبَرُ به -لأنَّها تؤدِّي أيضًا إلى العِلمِ، ورؤيةَ الإنسانِ بقراءتِه عن هذا الأمرِ؛ لأنَّه يؤدِّي إلى العِلمِ، ...فتَفسيرُها بالعِلمِ أَولى؛ لأنَّه أشمَلُ وأعَمُّ).

(ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ) أي: ثمَّ يجمَعُ اللهُ بينَ قِطَعِ السَّحابِ المتفرِّقةِ. موسوعة التفسير

(ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا) أي: ثمَّ يجعَلُ اللهُ قِطَعَ السَّحابِ المجموعةَ مُتراكِمةً؛ بَعضُها على بعضٍ، فتكونُ قويَّةً متَّصِلةً وكثيفةً. موسوعة التفسير

(فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ) أي: فتنظُرُ إلى المطَرِ يَخرُجُ مِن فُتُوقِ السَّحابِ نُقَطًا متفرِّقةً. موسوعة التفسير

قال السعدي: أي: الوابل والمطر، يخرج من خلال السحاب، نقطا متفرقة، ليحصل بها الانتفاع من دون ضرر، فتمتلئ بذلك الغدران، وتتدفق الخلجان، وتسيل الأودية، وتنبت الأرض من كل زوج كريم.

كما قال تعالى: اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ [الروم: 48].

(وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ) أي: ويُنَزِّلُ اللهُ البَرَدَ مِن جِهةِ السَّماءِ إلى الأرضِ، مِن قِطَعِ سَحابٍ عظيمةٍ كالجِبالِ. موسوعة التفسير

اختلف العلماء في المراد بالجبال:

❁فقيل: المراد بالجبال: السحب التي تشبه الجبال في شكلها، أي من سحب كالجبال.

❁وقيل: جبال حقيقية من برد خلقها الله في السماء.

(فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ) أي: فيُصيبُ اللهُ بالبَرَدِ مَن يَشاءُ مِن عبادِه؛ عقوبةً لهم، فيَضُرُّهم في أنفُسِهم وأموالِهم، ويُتلِفُ ثمارَهم وزُروعَهم، ويَصرِفُ البَرَدَ عَمَّن يشاءُ مِن عبادِه؛ رَحمةً بهم، فلا يُصيبُهم ضَرَرُه. موسوعة التفسير

قال ابن عاشور: جعَلَ نُزولَ البرَدِ إصابةً؛ لأنَّ الإصابةَ إذا أُطْلِقَت في كلامِهم دلَّتْ على أنَّها حُلولُ مَكروهٍ، ومِن ذلك سُمِّيَتِ المصيبةُ: الحادثةَ المكروهةَ، فجعَلَ نُزولَ البرَدِ إصابةً؛ لأنَّه يُفسِدُ الزَّرعَ والثَّمرةَ.

قال الشنقيطي: دَلالةٌ على أنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ في السَّماءِ جِبالًا مِن بَرَدٍ -على أحدِ القولَينِ-، وهو تعالى يُنَبِّه خلْقَه على ما فيه نفْعُهم؛ لِيطمَعوا فيه، وعلى ما فيه هَلاكُهم؛ لِيخافوا منه، فنَبَّهَ على ما يَطمَعونَ فيه بالمطَرِ، ونَبَّهَ على ما يخافونَ منه بالبَرَدِ، وهو شَبيهٌ بقَولِه تعالى: هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ [الرعد: 12].

قال الشنقيطي: وهذا مِن لُطْفِ اللهِ وحِكمتِه؛ فإنَّه لو لم يجعَلْ للمطَرِ فُتوقًا وفُروجًا يَنزِلُ منها مُفَرَّقًا، فأنزلَه دَفعةً واحدةً إلى الأرضِ لأهلكَ الناسَ والدَّوابَّ، ولأفسدَ الأرضَ وخرَّبَها، وهذا يَرُدُّ على عُلَماءِ الطبيعةِ الذين لا يَعتَبِرونَ لهذا الكونِ مُدَبِّرًا.

(يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ) أي: يُقارِبُ ضَوءُ بَرقِ السَّحابِ أن يُعمِيَ عُيونَ النَّاظِرينَ إليه؛ مِن شِدَّةِ ضَوئِه ولَمعانِه. موسوعة التفسير

قال السعدي: أليس الذي أنشأها وساقها لعباده المفتقرين، وأنزلها على وجه يحصل به النفع وينتفي به الضرر، كامل القدرة، نافذ المشيئة، واسع الرحمة؟

في هذه الآية فيه معنى جمال وجلال، يسلب البصر، من الجمال والاتقان، برق الآيات الشرعية والكونية، يخترق عقول الأخيار، فيملئ القلوب بنور الايمان، والجلال هي قدر الله وعظمته وهيمنته على الأكون، فهذا الضوء قد يكون آية عذاب، لكل من يطلق بصره بالحرام.

كما قال تعالى: يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ [البقرة: 20].

﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ ﴿44﴾

(يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) أي: يُعقِّبُ اللهُ اللَّيلَ والنَّهارَ؛ فيأتي بأحَدِهما بعْدَ الآخَرِ، ويتصَرَّفُ فيهما بالزِّيادةِ والنُّقصانِ، ويغَيِّرُ حالَهما بالحَرِّ والبَردِ، والظُّلمةِ والنُّورِ إلى غيرِ ذلك، ويُداوِلُ الأيامَ بينَ عبادِه، ويَرفعُ أقوامًا ويضعُ آخرينَ إلى غيرِ ذلك. موسوعة التفسير

قال السعدي: من حر إلى برد، ومن برد إلى حر، من ليل إلى نهار، ومن نهار إلى ليل، ويديل الأيام بين عباده.

ويدخل في ذلك تقليبهما بما يودعه الله فيهما من خير وشر، وضر، وغنى، وفقر، وصحة، ومرض، وما إلى ذلك مما يدخل في مفهوم قوله تعالى: (وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ) أي: إنَّ في ذلك لَعِظةً لأصحابِ العُقولِ النَّافذةِ، الذين يعتَبِرونَ بالنَّظَرِ إليه، فيَستَدِلُّونَ بذلك على وُجودِ اللهِ، وكَمالِ قُدرتِه وعظَمتِه وتوحيدِه. موسوعة التفسير

قال السعدي: لذوي البصائر، والعقول النافذة للأمور المطلوبة منها، كما تنفذ الأبصار إلى الأمور المشاهدة الحسية. فالبصيرُ ينظُرُ إلى هذه المخلوقاتِ نظَرَ اعتِبارٍ وتفَكُّرٍ وتدَبُّرٍ لِما أُريدَ بها ومنها، والمعرِضُ الجاهِلُ نَظَرُه إليها نظَرُ غَفلةٍ، بمنزلةِ نظَرِ البَهائمِ.

وقال ابن القيّم: (الاتّعاظُ يُسمَّى اعتِبارًا وعِبرةً؛ لعبورِ المتَّعِظِ مِن النَّظيرِ إلى نظيرِه).

قال الشنقيطي: العِبرةُ مِن الاعتبارِ، وهو مأخوذٌ مِن «العِبْرِ» وهو شاطِئُ النَّهرِ، ومَن قَطَعَ النَّهرَ فقد عَبَرَه، فكأنَّ المعتَبِرينَ بآياتِ اللهِ الدَّالَّةِ على قُدرتِه عَبَروا مِن شاطِئِ السِّنَةِ والغَفلةِ والجهلِ إلى شاطِئِ النُّورِ والانتباهِ والاتِّعاظِ.

مثال: لصاحب البصيرة النافذة الذي يعتبر ويتفكر، سيد ولد آدم -ﷺ- ورد في بخاري أن عائشة - رضي الله عنها - قالت: كَانَ النَّبِيُّ -ﷺ- إِذَا رَأَى مخِيلَةً فِي السَّماءِ، أَقْبَلَ وَأَدْبَرَ، ودَخَلَ وَخَرَجَ، وَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ، فَإِذَا أَمْطَرَتِ السَّمَاءُ سُرِّيَ عَنْهُ، فَعَرَفَتْهُ عَائِشَةُ ذَلِكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ -ﷺ- «مَا أَدْرِي؟ لَعَلَّهُ كَمَا قَالَ قوم: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ)

مخيلة: (سحابة يخال فيها المطر)، لا كما بعض الناس اليوم، يرى الرياح التي تحمل الراكب لشدتها، ثم يقولوا تغيرات في الطقس، وينسبها الى الطبيعة، فلا يتفكروا أنها قد تكون إنذار لأقوام، زاد طغيانهم وفسادهم في الارض.

كما قال تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) [البقرة: 164].

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿45﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال الرازي: لَمَّا استدلَّ أوَّلًا بأحوالِ السماءِ والأرضِ، وثانيًا بالآثارِ العُلويةِ؛ استدلَّ ثالثًا بأحوالِ الحيواناتِ.

قال البقاعي: وأيضًا لَمَّا ذكَرَ تعالى أوَّلًا أحوالَ الخافِقَينِ (المشرق والمغرب) دليلًا على وَحدانيَّتِه، وفصَّلَ منها الآثارَ العُلويَّةَ، فذكَرَ ما يَسقي الأرضَ؛ ذكَرَ أحوالَ ما يتكوَّنُ به مِن الحيواناتِ دَليلًا ظاهِرًا على الإعادةِ، وبُرهانًا قاهِرًا على المنكِرينَ لها، فقال تعالى

(وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ) أي: واللهُ خلَقَ كلَّ كائنٍ حَيٍّ يمشي على الأرضِ، مِن ماءٍ. موسوعة التفسير

قال ابنُ الجوزي: (وفي الماءِ قولان؛ أحَدُهما: أنَّ الماءَ أصلُ كُلِّ دابَّةٍ. والثَّاني: أنَّه النُّطفةُ، والمرادُ به: جميعُ الحيوانِ المشاهَدِ في الدُّنيا).

وقال ابنُ عثيمين: (كَلِمةُ مِنْ مَاءٍ أعَمُّ مِن كَلِمةِ نُطفةٍ، والواجِبُ إبقاءُ الآيةِ على عُمومِها).

قال ابن رجب: فيه دليلٌ على أنَّ الماءَ مادَّةُ جَميعِ الحيواناتِ، وعلى خَلقِ جَميعِ ما يدِبُّ وما فيه حياةٌ منِ ماءٍ؛ فعُلِمَ بذلك أنَّ أصلَ جَميعِها الماءُ المطلَقُ.

كما قال تعالى: وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ [الأنبياء: 30].

(فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ) أي: فمِنَ الحَيواناتِ المخلوقةِ مِنْ ماءٍ مَنْ يَمشي زَحفًا على بَطنِه؛ كالحيَّةِ. موسوعة التفسير

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ) أي: ومِنهم مَن يمشي قائِمًا على رِجلَينِ؛ كالإنسانِ والطَّيرِ. موسوعة التفسير

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ) أي: ومنهم مَن يمشي على أربَعِ قوائِمَ؛ كالبهائِمِ. موسوعة التفسير

(يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ) أي: يُحدِثُ اللهُ بقُدرتِه في كُلِّ وَقتٍ ما يشاءُ مِن المخلوقاتِ المتنَوِّعةِ، ويجعَلُها على ما يَشاءُ مِن الصِّفاتِ المختَلِفةِ. موسوعة التفسير

❁فاختلافها –مع أن الأصل واحد– يدل على نفوذ مشيئة الله، وعموم قدرته.

(إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) أي: إنَّ اللهَ على كُلِّ شَيءٍ قادِرٌ، ومِن ذلك قدرتُه على خلْقِ ما يشاءُ، ودخولُ كلِّ مخلوقاتِه تحتَ قدرتِه، فهو سبحانه لا يُعجِزُه شَيءٌ. موسوعة التفسير

❁ أي لا يعجزه شيء، ولا يمنعه مانع، ولا يدفعه دافع.

قال تعالى: (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً)[فاطر:44]

قال ابن القيم: وكلٌّ من هذه الأنواعِ له عِلمٌ وإدراكٌ وتحيُّلٌ على جَلبِ مصالحِه ودَفعِ مَضارِّه، يعجِزُ عن كثيرٍ منها نوعُ الإنسانِ، فمِن أعظَمِ الحِكَمِ الدَّالةُ الظاهرةُ على مَعرفةِ الخالِقِ الواحدِ المستولي بقوَّتِه وقُدرتِه وحِكمتِه على ذلك كُلِّه، بحيث جاءت كُلُّها مطيعةً مُنقادةً مُنساقةً إلى ما خلَقَها له على وَفقِ مَشيئتِه وحكمتِه، وذلك أدَلُّ شيءٍ على قوَّتِه القاهرةِ، وحِكمتِه البالِغةِ، وعِلمِه الشَّامِلِ، فيُعلَمُ إحاطةُ قُدرةِ واحدةٍ، وعلمِ واحدٍ، وحِكمةٍ واحدةٍ –أعني: بالنوع– مِن قادرٍ واحدٍ، عالِمٍ واحدٍ، حَكيمٍ واحدٍ، بجميعِ هذه الأنواعِ وأصنافِها مِمَّا لا تعلَمُه العُقولُ البشريَّةُ، كما قال: وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ [النحل: 8].

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿46﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال البقاعي: لَمَّا اتَّضحَ بما ذُكِرَ مِن الدَّلائِلِ ما لله تعالى مِن صِفاتِ الكَمالِ، والتنَزُّهِ عن كُلِّ شائِبةِ نَقصٍ، وقامت أدِلَّةُ الوحدانيَّةِ على ساقٍ، واتَّسَقت براهينُ الألوهيَّةِ أيَّ اتِّساقٍ؛ قال تعالى مُترجِمًا لتلك الأدِلَّةِ

(لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ) أي: لقد أنزَلْنا آياتِ القُرآنِ عَلاماتٍ واضِحاتٍ مُوضِحاتٍ للحَقِّ ولِما يحتاجُ النَّاسُ إلى بيانِه مِن مَعارِفَ وعُلومٍ، وآدابٍ وأحكامٍ. موسوعة التفسير

قال ابن عطية: (قَولُه: آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ يعُمُّ كُلَّ ما نصَبَ الله تعالى من آيةٍ وصَنعةٍ للعِبرةِ، وكُلَّ ما نصَّ في كتابِه مِن آيةِ تنبيهٍ وتذكيرٍ).

(وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) أي: واللهُ يُرشِدُ ويُوفِّقُ مَن يشاءُ مِن عبادِه مِمَّن هو أهلٌ للهِدايةِ، إلى طريقِ الإسلامِ المستَقيمِ الواضِحِ، الموصِلِ إلى رِضاه وجَنَّتِه. موسوعة التفسير

قال ابنُ عثيمين: (يعني: على الرَّغمِ مِن كَونِ الآياتِ مُبَيِّنَاتٍ واضِحةً مُبَيِّنةً، على الرَّغمِ مِن ذلك، فليس كلُّ أحدٍ يَهتدي بها، وإنَّما الله تعالى يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ).

قال السعدي: لقد رحمنا عبادنا، وأنزلنا إليهم آيات بينات، أي: واضحات الدلالة، على جميع المقاصد الشرعية، والآداب المحمودة، والمعارف الرشيدة، فاتضحت بذلك السبل، وتبين الرشد من الغي، والهدى من الضلال، فلم يبق أدنى شبهة لمبطل يتعلق بها، ولا أدنى إشكال لمريد الصواب، لأنها تنزيل من كمل علمه، وكملت رحمته، وكمل بيانه، فليس بعد بيانه بيان لِيَهْلِكَ بعد ذلك مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَة (وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) ممن سبقت لهم سابقة الحسنى، وقدم الصدق، (إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) أي: طريق واضح مختصر، موصل إليه، وإلى دار كرامته، متضمن العلم بالحق وإيثاره والعمل به. عمم البيان التام لجميع الخلق، وخصص بالهداية من يشاء، فهذا فضله وإحسانه، وما فضل الكريم بممنون وذاك عدله، وقطع الحجة للمحتج، والله أعلم حيث يجعل مواقع إحسانه.